تجليات الرفض في الشعر العراقي الحلي

- دراسة في الخطاب المقاوم -

عبدالمهيمن عليوي مهدي
طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران
mohamenali59@gmail.com
د. يوسف نظري (الكاتب المسؤول)
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة شيراز، إيران
Nazari.Yusuf@shirazu.ac.ir

Manifestations of Rejection in Iraqi Al-Hilli Poetry: A Study of Resistance Discourse

Abdulmohaimen Oleiwi Mahdi Al-Azzawi
Ph.D. Student , Department of Arabic Language and Literature , Shiraz University , Iran
Yusuf Nazari (Corresponding Author)
Associate Professor , Department of Arabic Language and Literature , Shiraz University , Iran

الملخص:-

تعد ظاهرة الرفض من الظواهر شديدة الارتباط بالشعر على مر العصور، وقد يكون هذا الرفض رفضاً لواقع اجتماعي قائم أو لواقع اقتصادي أو سياسي، وقد يكون رفضاً للاحتلال والظلم، فينبري الشعراء ليدافعوا عن بلدهم عبر رفضهم الاحتلال عن طريق توظيف العديد من الوسائل المعبرة عن الرفض في أشعارهم. ويتناول هذا البحث تجليات الرفض في الشعر العراقي الحلي متمثلاً بالخطاب المقاوم، عبر تحليل العديد من النماذج الشعرية لعدد من الشعراء، فتناول البحث أولاً في إطاره النظري المفاهيم التي يقوم عليها، وهي مفهوم الرفض ومفهوم المقاومة، لينتقل في مبحثه الثاني إلى الجانب التحليلي المتضمن لوسائل الشعراء في التعبير عن ظاهرة الرفض من خلال محورين هما استنهاض الهمم والحث على النهوض ومن خلال لغتهم الشعرية. وقد توصل هذا البحث إلى جملة من النتائج من أهمها أن الرفض والخطاب المقاوم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وأن الشعراء لجؤوا إلى استعمال لغة شعرية تعبر عن هذا الرفض عبر الخطاب المباشر أحياناً والخطاب الموحي بالرفض أحياناً أخرى. الكلمات المفتاحية: الرفض، المقاومة، اللغة الشعرية.

الكلمات المفتاحية: الرفض، المقاومة، اللغة الشعرية، المظاهر.

Abstract:-

The phenomenon of rejection is one of the phenomena closely associated with poetry throughout the ages. This rejection may be a rejection of an existing social, economic, or political reality, or it may be a rejection of occupation and injustice. Poets rise up to defend their country by rejecting occupation, employing a variety of means of expressing rejection in their poetry. This research examines the manifestations of rejection in Iraqi Hali poetry, represented by the discourse of resistance, through an analysis of several poetic models from a number of poets. The research first addresses, within its theoretical framework, the concepts upon which it is based: the concepts of rejection and resistance. In its second section, it moves to the analytical aspect, encompassing the poets' means of expressing the phenomenon of rejection through two axes: mobilizing spirits and urging progress, and through their poetic language. This research reached a number of conclusions, the most important of which is that rejection and resistance discourse are inseparable from one another, and that poets have resorted to using poetic language to express this rejection, sometimes through direct discourse and at other times through discourse that suggests rejection.

Key words: rejection , resistance , poetic language , manifestations.

- بيان المسألة:

يرتبط فن الشعر بظاهرة الرفض ارتباطاً شديداً، فهو وثيق الصلة بهذه الظاهرة، حتى إن الشعر لم يقترن بظاهرة ما على مدى وجوده بمقدار ارتباطه بظاهرة الرفض، ويكاد يكون الشعر العربي المعلصر أشد اقتراناً وارتباطاً بهذه الظاهرة بسبب ما يكتنف هذا العصر من هموم وتناقضات تكاد تشمل كل المجالات والميادين، حتى وجد الشعراء أنفسهم أمام واقع اجتماعي وسياسي معيش تتقاذفهم فيه هموم الحياة اليومية فينزعون إلى التغبير عن آلامهم وآمالهم بكل غضب وسخط، لتتولد من كل ذلك إبداعاتهم الشعرية المتأججة بنيران التمرد والرفض. ويعد الشعر العراقي الحلي ميداناً خصباً لدراسة ظاهرة الرفض لأن هذا الشعر في أساسه قائم على مبدأ المقاومة، إذ إن الأحداث التي مر بها العراق وما تعرض لها أله من ويلات الحروب وظلم المستعمر قد دفع الشعراء إلى تحمل مسؤولياتهم في رفض الواقع المرير الذي حل بالبلاد والعباد، ولما رأوا اليأس قد بدأ يتسلل إلى نفوس الناس فقد بات واجباً عليهم استنهاض هممهم ودفعهم إلى الوقوف مجدداً في وجه ذلك الواقع.

- أسئلة البحث وفرضياته:

يطرح البحث التساؤلات الآتية:

١- ما هو مفهوم الرفض في الأدب العربي والشعر المقاوم على وجه التحديد؟

٢- لماذا تم التركيز على الفض في الخطاب المقاوم في الشعر الحلي العراقي؟

ويفترض البحث الإجابات الآتية:

١- إن الرفض تعبير عن تمرد على الواقع الأليم والقيم البائدة التي تسوده انطلاقاً من التزام فكري وثقافي، والأدب هو الميدان المناسب لهذا التعبير.

٢- إن الشعر العراقي الحلي يقوم على المقاومة ورفض الذل والاستعمار، ولذلك كان هذا الشعر مادة مناسبة لبحث ظاهرة الرفض المرتبطة بالمقاومة.

- منهج البحث:

يتبع هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي.

- هدف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١- الكشف عن الرابط بين ظاهرة الرفض والشعر العربي.

٢- بيان وجه العلاقة بين ظاهرة الرفض والشعر الحلي المقاوم.

٣- بيان الأساليب التي اتبعها شعراء الحلة في التعبير عن ظاهرة الرفض.

- خلفية البحث:

لم يعثر الباحث على دراسات عن ظاهرة الرفض في الشعر الحلي، إلا أن الباحث وقف على بعض الدراسات التي تتناول هذه الظاهرة، منها:

- شعر المقاومة عند سميح قاسم، قراءة في ديوانه، عبد الخالق هواري عسول، جامعة ابن خلدون، الجزائر، ٢٠٢١.
- الاستنهاض في قصائد السيدين حيدر الحلي وجعفر الحلي، الإمام المهدي (عج) أنموذجاً دراسة موازنة موضزعية أسلوبية، بلاسم حسن حمادي الخفاجي، مجلة كلية التربية الأساسية، ع١١١، مج٢٧، ٢٠٢١.
- شعر المقاومة والرفض في الأدب العربي الحديث، جعادة إسمهان، جامعة أبو بكر بلقايد، الجزائر، ٢٠١٤.

المبحث الأول

الإطار النظري

أولاً - الرفض في الشعر العربي:

تحمل كلمة الرفض من الناحية اللغوية العديد من الدلالات، فالرفض "تركك الشيء، تقول: رفضت الشيء أرفُضه وأرفِضه رفضاً ورفَضاً: تركته وفرّقته"[١]. ويأتي الرفض بمعنى الكسر إذ يقال: "رفضت الشيء أرفُضه وأرفِضه رفضاً فهو مرفوض رفيض: كسرته"[٢].ويأتي الرفض بمعنى التخلية كأن "يطرد الرجل غنمه وإبله إلى حيث يهوى، فإذا بلغت، لها عنها وتركها"[٣]. ومن هذه المعاني اللغوية لكلمة الرفض نجد أنها تدور خول

معاني الترك ومنه عدم القبول بالشيء، وهو ترك كما يفهم من كلام اللغويين المذكور آنفاً يكون بدافع الوصول إلى غاية ما كان يرمي إليها الرافض أي التارك، وأذا نظرنا في معنى الرفض بمعنى الكسر، فإننا نجد أن هذا المعنى لا يخلو من عنف وغضب وتحدّ.

أما من حيث الاصطلاح، فإننا نجد أن المغنى الاصطلاحي للرفض لا يخرج عن معناه اللغوي، وقد لاحظ الباحثون أن الإنسان الرافض لشيء ما يبحث عن بديل له لما يعانيه من ضيق في الطبع أو البيئة، فلا يرفض شيئاً إلا لالتزامه بشيء آخر، "فرفض وضع من الأوضاع يعني الموافقة على وضع آخر يخالفه"[٤]. ويقوم الرفض على فلسفة خاصة وعلى مجموعة من الأفكار التي يتبناها الرافض في خضم واقع سياسي أو اجتماعي أو فكري معين، "وفلسفة الرفض ليست مذهباً سلبياً من الوجهة النفسانية، وهي لا تؤدي في مواجهة الطبيعة إلى مذهب عدمي"[٥]. ولا يقوم الرفض من فراغ، ففلسفة الرفض "ليست إرادة سالبة، فهي لا تنطلق من تناقض يعارض بدون أدلة، ويثير جدالات فارغة وغامضة، وهي لا تتهرب منهجياً من كل قاعدة، إنها خلافاً لذلك كله، وفية للقواعد داخل منظومة قواعد"[٦].وهذا يعني أن الرافض لا يواجه الواقع أو الفمر أو المعتقد بالرفض إلا إذا كان على قناعة فكرية ودراية علمية بأن ما يملكه ويريد تقديمه مقام ما يرفضه ويسعى إلى تغييره هو الحق والموضوعي، وهذا الأمر يتطلب قوة من الرافض، "فالرفض يوجب اتصاف صاحبه بقوة الإرادة لا بضعفها أو فقدانها، وقوله لا عند رفض الشيء أدل على قوة إرادته من قوله نعم، شريطة ألا يكون رفضه ناشئاً عن دوافع غريزية عمياء"[٧].ويكاد اقتران الشعر بالرفض يكون ميزة ينفرد بها الشعر أكثر من سواه من الفنون الأدبية، ويرجع هذا الأمر إلى طبيعة الشعر نفسه، "فلم ولن يكون الشعر كذلك شعراً بحق إلا لأنه ثوري، بأوسع معاني الكلمة، فكل عمل شعري يستحق هذا الوصف بجدارة إنما ينطوي على رؤية للواقع ترفض فيه عنصر السكون وتتمرد عليه، فالشعر خروج من سكون اللا تاريخ إلى حركة التاريخ، وهو بهذا المعنى فعل ثوري من الطراز الأول، وهو الضمان الأدبي لاستمرار فعل الرفض الثوري واطراده، فإذا كانت الثورة محدودة الهدف، ثم أتيح لها أن تحقق هذا الهدف، فإن سرعان ما تفقد جوهرها الثوري الرافض وتقع في خطيئة السكون المميت، عند ذاك يظل الأمل معلقاً بالشعر أن يعيد إليها الحركة أو لنقل يعيد إليها جوهرها"[٨]. فالرفض نتاج فكري يقوم بدور الرفض والتمرد على الاحتلال أو القيم البالية أو الواقع الاجتماعي،

وتوجيه الجماهير نحو المحافظة على وجودها الحضاري، ثم تطورت التسمية واتخذت مدلولاً آخر هو الشعر السياسي أو الشعر الملتزم، وبما أن الجانب السياسي والاجتماعي متلازمان، فإن الرفض والتمرد والرغبة في التغيير لا يكونان فقط ضد مستعمر غاشم أو حاكم مستبد، بل ضد الظروف الاجتماعية القاسية، فينبري الشعراء يوعّون الناس بمعاشهم ومآلهم.[٩] ولا يكون كل شعر يعالج أحد المواضيع المتعلقة بالمجتمع والسياسة خليقاً بأن يسمى شعراً اجتماعياً أو سياسياً رافضاً، بل يجب أن تتوافر فيه مجموعة من الشروط التي تحكمه وتضبطه، إذ لا بد من أن يكون لهذا الشعر دور قيادي في محاربة الأفكار والشعائر البالية، وأن يكون كاشفاً لها بوضوح كي يكسد رواجها وتبور بضاعتها بين الجمهور، فتصبح كأنها سلعة ملغاة أو نقد زائف لا يصلح للتداول[١٠].وما يجب أن يتوافر في الشعر حتى يحظى بالميزة الأولى ويحقق غايته من الرفض أن يحافظ الشعر في قيامه بدوره الثائر على استقلاله، فلا يظهر المتملق لما هو خارج نطاقه، وأن يقوم الشعر بتصوير القيم الاجتماعية على أساس قناعة الشاعر نفسه، وناجماً عن إلحاح باطني عليه بضرورة الكتابة استجابة لدواع نفسية صادرة عن ذاته، ويستلزم ذلك منه أن يكون على اتصال دائم مع الجمهور، وأن يحاول الارتقاء بذلك الجمهور وأن يتدلى إلى مجاراته، بحيث يشعر المجتمع نفسه بما يسري فيه من متناقضات بين المفهومات القديمة والمفهوم الجديد للحياة الاجتماعية.[١١]

ثانياً - المقاومة في الشعر العربي:

تعد المقاومة في الثقافة العربية والتاريخ العربي ذات جذور عميقة، ولها أشكال كثيرة من التعبير المتعددة الأجناس الأدبية من شعر ونثر، وجميعها تعبر عن حالة واحدة متضمنة الاعتزاز بالأمة واستنهاض قوتها وهمتها والتأكيد على مكانتها ووجودها في هذه الحياة[١٢]. المقاومة في اللغة من مادة قوم، والقيام هو نقيض الجلوس، حيث يقال: قام يقوم قياماً وقوماً وقامة، ويقال رجل قائم، وذكر اللغويون أن القامة جمع لقائم، والقيام العزم أيضاً [١٣]. ويأتي القيام أيضاً بمعنى الوقوف والثبات ومنه التوقف في الأمر أي الوقوف عنده من غير مجاوزة له، كما ذكر أن المقام والمقامة هما الموضع الذي تقيم فيه، والقوم بضم القاف القصد، ويقال قاومه في المصارعة وغيرها، وتقاوموا في الحرب أي قام بعضهم لبعض[١٤]. ومما ذكره المعجميون أيضاً أنه يقال قاومت فلاناً في الأمر أي نازلته، وقاومه فاعله من القيام ومعناه أنه قام معه ليقضي حاجته صبر عليه إلى أن يقضيها[١٥]. وقام للأمر تولاه، وقام الحق

استقر وظهر، وقام على الأمر ثبت ودام، وقاومه في المصارعة وغيرها أي قام له، وقاومه في حاجته قام معه فيها[١٦]. ولا تختلف المعاني اللغوية لهذه المادة في المعاجم اللغوية عما ذكر آنفاً، حيث يحمل المعنى اللغوي للمقاومة على اعتبارها مصدراً للفعل قاوم معنى التصدي، ومواجهة الصعوبة، فيقال قاوم الشعب المحتلين أي تصدى لهم وواجههم مكافحاً ومعارضاً، كما يقال قاوم الإغراء أي واجهه وصمد ولم يستسلم، واسم الفاعل منها مقاوِم، ويجمع على مقاومين، بمعنى المناهضين لطاغية أو محتل[١٧]، لتكون المقاومة مصدراً للف ل الرباعي قاوم فيقال قاوم يقاوم مقاومة بمعنى المدافعة والممانعة[١٨]. ومن هذه المعاني نستطيع التدرج نحو المعنى الاصطلاحي للمقاومة، حيث يعرف الباحثون المقاومة بأنها استعمال كافة أشكال العمل المعبر عن رفض الاحتلال، ووجود نظام فاسد مستبد، بما في ذلك استعمال العمليات المسلحة، لإنهاك العدو والإضرار بقوته ومعداته، والاستعمال الشائع لمفهوم المقاومة أنه اللجوء إلى أساليب الكفاح ضد قوة محتلة[١٩]. وتعرف المقاومة كذلك من حيث الاصطلاح على أنها: الاستخدام المشروع لكل الوسائل بما فيها القوة المسلحة لدرء العدوان وإزالة الاحتلال والاستعمار وتحقيق الاستقلال ورفع الظلم المسنود بالقوة المسلحة بوصفها أهدافاً سياسية مشروعة وهو ما يتفق مع القانون الدولي وتؤيده الشريعة الإسلامية، ويتم التركيز هنا على مشروعية الوسائل التي تستعملها المقاومة بما فيها القوة المسلحة[٢٠]. أما أدب المقاومة فهو الأدب الداعي إلى الحرية والتخلص من العبودية، "فعلى مدى الأجيال كان الأدب أكثر الفنون التصاقاً بالثورات، وأقواها جميعاً في التعبير عنها، وما من ثورة عرفها التاريخ إلا كان الأدب هو الممهد لها، بالخطبة والقصيدة وبالمقال والقصة والرواية، وما إليها، ثم كان بعد قيامها هو الداعي لها والناشر لمبادئها والمدافع عنها ضد مناهضات الخصوم والأعداء، فإذا استقر أمرها كان الأدب هو الراصد لمسيرتها، والمسجل لخطواتها، والمعبر باستمرار عن تأييد المجتمع لها أو سخطه عليها"[٢١]. وتعد الحرية القيمة الأساسية الأكثر ارتباطاً بالأدب، وقد اعتبر بعض النقاد أن الأدب والحرية مترادفان، حيث إنه يجب أن تكون رسالة أي كاتب توطيداً لأركان الحرية، فالعمل الإبداعي فعل حر، وهن فعل غير منفصل عن الالتزام، فحرية الاختيار قسمة مشتركة بين الكتاب جميعاً ملتزمين وغير ملتزمين، وهي أساس المطالبة بالالتزام، ولا تقتصر ممارسة الحرية على مرحلة الكتابة فقط، بل تمتد إلى تلقي العمل الأدبي أيضاً، بدءاً من حرية اختيار النص إلى حرية تفسير النص وحرية إدخال النص في نسق أبداعي آخر[٢٢]. وقد أتيح لأدب

المقاومة تجربة إنسانية عميقة، وهي تجربة الحرب والمقاومة، "فأدب المقاومة تجربة منفردة من بين الآداب الإنسانية عامة، لأنه ينتج خلال ظروف الحرب وتقرير المصير التاريخي، ولا يتوهج أدب المقاومة إلا في قلب المقاومة حيث يعانق المقاتل وجدان الفنان"(٢٣).

وينطبق تشخيص النقاد للشعر المقاوم على الشعر الاعتقالي، ويدخل هذا الأخير ضمن تصنيف الأدب المقاوم، ذلك أن "هذا الشعر الثوري لا يعبر عن ثورة أصحابه معزولين عن حركة جماهيرية يعبرون عن صراعها، أي إن هؤلاء الشعراء ليسوا مجموعة من أشجار النخيل الثابتة في صحراء قاحلة، إن كونهم شعراء يملكون أصواتاً مسموعة لا ينبغي أن يخلق الانطباع بوحدانيتهم وانقطاع انتمائهم إلى جماهير تمتلك ماضياً وحاضراً ثوريين"(٢٤). لقد أبدع الشعراء نظم قصائدهم كما أبدع المقاتلون رماية قذائفهم، ولذا كان لزاماً على الشاعر أن يتقن لغة شعره مع استعمال الطرق الفنية القديمة والحديثة، لينتج منتجاً حديثاً، وتكرير صياغة الأفكار الذي ينتج أبواباً شعرية جديدة تليق بوصف واقع مليء بالحوادث، ليكون الشعر الحديث من ضرورات المواكبة للتطورات العصرية الحضارية، من دون أن يكون مجرد معارضة للشعر القديم، ومن هنا فإن ما لحق بناء القصيدة ال ربية من تنوير قد أضحى مشكلاً لامتداد الإبداع واستثمار التراث الذي هو مرتكز مهم يعتمد فيه الشعر الحديث على ذات التفعيلة المأخوذة من التراث ومن البحور الخليلية، حيث يكون الشاعر معتمداً على التجربة الشعرية الصادقة، ومركزاً على الجانب اللغوي وموسعاً لمفهوم الإيقاع الموسيقي إلى داخلي وخارجي، مما يؤدي إلى اتساع البنية الإيقاعية فتكبر مضامين القصيدة العربية وتصبح أهدافها أكثر اتساعاً وتتطور من الناحية الشكلية بما يناسب العصر، من حيث تطور الأغراض واتساع الإيقاعات، فتشكلت اتجاهات كثيرة جديدة، فأن الشعر كان وسيبقى ديوان العرب يسطرون فيه تاريخهم ويقومون بكتابة مآثرهم، ليصبح أدب المقاومة في العصر الحديث المدرسة الأدبية والثورية والنضالية(٢٥).

إن الشعر كما يرى النقاد أعواد من الكبريت يقوم الشعراء بصنعها من خشب العبارات ويقومون بإلقائها في صميم الشجاعة، وما يعين هذه الأعواد هو ما يحيط بالشاعر من الأجواء والأهواء والرصاص المتطاير والصواريخ التي تقاتل والشعب المهاجم والقضية المدافع عنها في أحضان المؤمنين بها والملتزمين بالدفاع عنها وعن دماء الأمناء والشهداء، فإن هذا وغيره يشكل دافعاً للشاعر للكتابة والتحليق بأفكاره مدفوعاً بإحساس صادق، ومن هنا فإنه من

المستحيل التحدث عن شاعر ثوري من دون أن نمر بتجربة الشاعر الثورية، فليس الشاعر الثوري هو من يقوم بالكتابة والحديث عن الثورة، ولكنه الذي يعيش تجربة ثورية عبر حضوره الدائم والحار في ميادين المواجهات، إذ تشكل تلك التجربة عنده التجربة الحياتية العامرة بالتضحية والحب، فإن الاستعداد التام للتضحية الشاملة هو الذي يعبر عن الحب الحقيقي، فشاعر التجربة الثورية هو المحب، والمتصوف الكبير، الذي يحيا أسخى أشكال التخلي عن الحياة لتصبح الثورة حياته فتخل فيه ويحل فيها[٢٦]. فالشعر مظهر من مظاهر الكائن الإنساني، ولا بد له من أن يتطور بتطور الحياة، وأن يتقدم بتقدم الزمن، فالشعر الأصيل هو مولود عصره حيث يعبر دائماً عن أحوال المجتمع والأمة، وعلى الشاعر أن يتحدث عن آلام أمته، ومن هنا كان الأدب المقاوم وثيق الصلة بقضايا الشعب والأمة، فهو الأدب الملتزم الذي يصور حياة الناس ومصائبهم، "في الوقت الذي كان فيه اهتمام العديد من الشعراء الكبار منصباً على شعورهم بالغربة واليأس، كان الوضع مختلفاً في فلسطين المحتلة تدور أفكاره الرئيسية حول الشجاعة والاستبسال"[٢٧]. وقد تميز شعر المقاومة بمميزات تكاد تكون جامعة له، وهي السهولة في الكلام والوضوح في الصور، فقد ذكر بعض الباحثين أنه إذا نظرنا في الشعر الفلسطيني نجد أن هذا الشعر قد كان "واضح القصيد وواضح العبارة، لا يموه ولا يعاضل مهما كانت وجهته التعبيرية، إذ يكاد هذا الشعر يخلو خلواً تاماً من التأملات الذهنية والغموض النفسي المحير، وشطحات الخيال البعيد، والتساؤل المخض في معنى الحياة والموت، كما يخلو من غرابة التركيب اللغوي، أو التعقيد في بناء القصيدة"[٢٨].

فشعر المقاومة هو الشعر الملتزم الذي يبين بلسان واضح من دون الالتفات إلى الإبداع في مجال التخييل، ولا تعقيد فيه، يصرح بالحقائق وينبه المتلقي، لتكون مهمة الشاعر المقاوم هي تبليغ رسالة إلى المتلقين يعلمهم فيها كيفية المواجهة أمام النظم المستبدة وأصول المقاومة أمامها، فيغدو الأدب مشعل الثورة وملهبها وأهم وسائل التغيير، فما الثورة إلا استجابة لثورة العقول والقلوب والنفوس التي يحدثها الأدب، وتحدثها مع أدب ثورات أخرى، ولا يكاد يعرف ثورة بالمعنى القديم أو الحديث لهذا اللفظ إلا وسبقتها ثورة أدبية وعقلية كانت هي التي أغرت الناس بها، ودفعتهم إليها وأخرجتهم عن أطوارهم فلم يستطيعوا الصبر على ما يكرهون[٢٩]، فالعلاقة بين الأدب والثورة علاقة أزلية ترفدها منذ القدم لتحقيق التغيير وإرساء قواعد العدالة والمساواة والحرية. ولذلك نجد أن الناس قد شغفوا في القديم

والحديث بالأدب المقاوم، وملامح الأدب المقاوم تؤكد حضوره حين يغدو فاعلاً وقوياً في الحديث عن مجابهة الاحتلال، وهذا يثبت أن الأدباء والكتاب والمثقفين يقعون في الدرجة الأولى من المجتمع في تحمل مسؤولياتهم لتصليب الإرادة وبث الوعي بملامح المقاومة وتوثيقها لتحفيز المجتمع على التمسك بقيمه وثوابته الأخلاقية والوطنية والقومية[٣٠]، وبالتالي ترتقي ملامح هذا الأدب المقاوم إلى قمة الأساليب التعبيرية عن كل القيم النبيلة والسامية التي تحقق حرية الإنسان وكرامته وتوفير الطمأنينة له.

المبحث الثاني

الإطار التحليلي

أولاً – استنهاض الهمم والحث على النهوض:

يعد استنهاض همم الشعوب ودعوتها إلى النهوض وعدم اليأس من المواضيع البارزة في الشعر المقاوم، فالاستنهاض هو طلب كطلب القيام بالأمر أو طلب النصرة والمعونة وتحريك همة المستنهضين لأمر ما[٣١]. ويكون استنهاض الهمم تارة بالدعوة المباشرة إلى الفعل، وتارة أخرى بالتذكير بالماضي وبما وقع فيه من أحداث جسيمة لم تؤد إلى اليأس والقنوط، بل كانت مدعاة إلى النهوض مرة أخرى للمواجهة، وقد استدعى االشاعر سعد الشريفي ذكريات بابل للتعبير عن هذا المعنى، فقال:[٣٢]

كم مرّت عليكِ أقواماً
كم أنهكتكِ وخزاتِ المحتلّين
وثقل خطواتهم ولهجاتهم الغريبة
كم ألقى عليك المغيب ظلاله الحزين
وكنتِ في كلّ مرة
تنهضين من الجحيم
وتتفجّرين نوراً في الظّلام
كم اهتزّت جذوع النخيل
بضربات المحتلين الأوباش
وبقيت واقفة في غمام الرّعود

إن الشاعر هنا يذكر بالمآسي التي مرت على بابل، فقد مر عليها الكثير من الناس، وأوجعتها ضربات المحتلين، وكانت تعيش في هم وغم جرّاء وجود أناس غرباء عنها في كل شيء، في تصرفاهم ولغتهم وأشكالهم، ولكنها مع كل ذلك كانت تعود لتقف من جديد، ويعود نورها وألقها يشق غياهب الظلمات، فكل الألم الذي عانته كان مدعاة إلى نهوض أقوى.

وقد يلجأ الشاعر إلى دعوة الشعب دعوة مباشرة إلى النهوض والوقوف في وجه المحتلين والفاسدين، ولا يكون ذلك إلا بعد أن تبلغ حساسيته الشعرية مداها، فلا يكون بعدها قادراً على التورية والترميز، فيلجأ إلى الدعوة الصارخة بأسلوب قد يميل إلى التقريع والتوبيخ، يقول سعد الشريفي(٣٣):

استيقظ أيها العراقي
استيقظ أيها الجوع...أيها الحرمان..أيها العذاب
حتى تواجه العناوين المخادعة
حتى تواجه سراق ثروة البلاد
حتى تواجه الكذب والمهيمنين على كل السلطات
استيقظ: حتى تواجه الطغيان
كم نبّهك الحكماء وقالوا أن الريح تلوي الأذيال
وتحصد العابرين
كم من الأسرار وألاعيب السلطات الثلاث
كشفها لك النهر
ولم تتطلع إليها
ولم تتذكر سواد أيامك
استيقظ: إن صرخات الحق تخيف الجلادين
استيقظ إنهم يؤسسون لطغيان آخر
طغيان جاهل ومتخلف ومذهبي
استيقظ
الربيع قادم.. والفجر في المدى
والسماوات قريبة منك
ستدقّ أجراس شعبنا عن قريب

إن الشاعر يوجه دعوته المباشرة إلى الشعب العربي ليستيقظ من غفوته ويرى كل الظلم والفساد الذي حوله، وما كانت دعوته المباشرة تلك إلا لما رأى أن الفساد والظلم قد أصبحا واضحين وضوح الشمس، ومع ذلك رأى الشعب ما زال في غفوته، فكانت نبرته حادة وتحمل في طياتها توبيخاً لاستمرار غفوتهم، وتوبيخاً آخر لعدم إفادتهم من دروس الماضي، إلا أنه يعود فيخفف من حدة لهجته، ويحثهم على النهوض لأن صوتهم سيخيف الظالمين، مؤملاً إياهم بفجر جديد وربيع مزهر يحمل في طياته كل السعادة للشعب العراقي. وتأتي دعوة صارخة من الشاعر أحياناً لفك القيود والأغلال، وهي صرخة بوجه الجلادين والمحقين، يقول محمد الصباغ(٣٤):

يا قوم حيّدوا الأغلال، يكفيني شسْعاً في مآقي
ذنبي صليب لم يكتسب إلا سكوني
سأتلو غير الكاتبين
أنا قدرهما
حسناً
وقفزتُ حقيبةً بيد الأحلام وهما مجهشان
وغادرا مثقلين بأسفاري
إني الآن زوبعة بيضاء أو سوداء

ونجد الشاعر في هذه الأسطر الشعرية ينتفض ضد الجلادين، معترفاً بأن السكوت هو الذي أوصله إلى هذه الحالة، وما تلك إلا دعوة ضمنية إلى الصراخ عالياً بوجه الظالمين. فقد نهض الشاعر من غفوته وغير قدر الجلادين حتى علا بكاؤهم من نهضته، فهو الآن زوبعة لا تبقي ولا تذر. ويستغرق الشاعر في التحدي، فالنهوض قدر عليه ويجب أن يكون قدراً على الشعب على الرغم من كل المعوقات والصعائب التي تقف في طريقهم، يقول الصباغ(٣٥):

حتّى وإن خذلني صوتك واقتفى التورّي
حتى وإن كانت أعمدتك في طريقي أسدلت مصابيحها
حتى وإن حرضت عليّ نباتاتك الصخراوية لتكون كلاباً تنهشني في طريقي إليك...سآتي
حتى وإن أطعمت الجياع من لحمي
وسمحت للتحريض أن يخرج بجيشه ليجوب شعوب المتزحشين، والزنوج المرتزقة، والهنود الحمر، وقبائل التبت، وآكلي لحوم البشر، ليقفوا في طريقي...سآتي

ثانياً – اللغة الشعرية الرافضة في الشعر الحلي المقاوم:

يجسد الشاعر عمق معاناته ويثير عبر لغته الشعرية نزوعه الدائم لرفض الواقع لما فيه من مآس متناقضات، ويعبر عن ذلك بلغته الشعرية التي يستدل بها على فظاعة هذا الواقع عبر شرح تفاصيله مستعملاً ألفاظاً لا تخرج عن دائرة الرفض، كما نجد في قول الشاعر مازن العموري[٣٦]:

أستيقظ مبكراً..غالباً
تتكدّس طحالب سود في صنبور الماء وثلمات عظام قديمة نسيتها
في خزان الماء أعلى السطح
وظيفتي كقاتل مأجور ليست جيدة هذه الأيام
أسعار الرؤوس زهيدة
ميليشيات مدينتي استبدلت القتل بالخطف
وخزاني لم يعد يكفي العظام
قال لي أحد الأصدقاء عالجها بالتيزاب
لكن المشكلة إنه ثقب الخزان والسقف
في مرآة المغسلة..قائمة بأسماء جديدة بعضها مشطوب
النهايات السعيدة تنتهي بالكواتم

تتجلى في هذه الأسطر الشعرية لغة شعرية رافضة للواقع الذي يعيشه العراق، هي صورة الخطف والقتل وانتشار الميليشيات ورخص الروح الإنسانية حتى باتت الميليشيات تتعامل مع الإنسام كسلعة رخيصة، وقد يبدو هذا الرفض للوهلة الأولى تشاؤماً ويأساً من الواقع لا رفضاً له، لكن الرفض في حد ذاته عنصر هدم، فما من ثورة جذرية أو حضارة تأتي دون أن يتقدمها الرفض ويمهد لها كالرعد الذي يسبق المطر.[٣٧] وند هذه اللغة ذاتها عند الشاعر وهو يتحدث عن الواقع المرير الذي اجتاح بلاده واستقر فيها، حتى غدا سكانها من سكونهم يعلوهم الغبار كما الكتاب الذي بقي على رفوف المكتبة فترة طويلة من الزمن لا أحد يقرأ فيه ويمسح الغبار عنه، يقول مازن العموري:[٣٨]

دخلت إلى الدائرة
تعلو المدير كثبان رملية..وكان يمد يده ليمسك الأوراق والقلم السوفت، وكذلك الجدران
التي أصبحت بلون بيجي محمر

خرجت مسرعاً وأنا أشهق لأتنفس قليلاً، لكن الغبار حالك كليل
بعض الناس يمشون والتراب يتطاير من أجسادهم
لم أعد أميز أحداً منهم، سوى أنني أدرك أن التراب ينهال على المدينة كمدفن أخير

يستعمل الشاعر بداية لفظ الدائرة في إشارة إلى دوران الشعب في حلقة مفرغة لا يغادرونها حتى علاهم الغبار الذي ضاق به صدر الشاعر فحاول الخروج من هذه الدائرة لاستنشاق بعض الهواء، إلا أنه صدم بالواقع الذي حوله، فالغبار منتشر في كل مكان، والناس قد اعتادوا عليه، فيمشون وهو يعتليهم من دون أي محاولة تبدر منهم لإزالته، وهذه الصورة تنم عن رفض عميق من الشاعر لهذا الواقع، فهو مدرك أن الشعب إن استمر على هذه الحال فإن الغبار سيدفن المدينة برمتها، وهنا يجسد الشاعر الشعر بوجدانه بكل معانيه، فالصورة تحكي هذا الوجدان هي ما يخلق الفرق بين الشاعر وغيره، فالشاعر أكثر وعياً وإدراكاً للسياسة وما يدور في سراديبها وأكثر تفطناً لتربص العدو المتحين لفرصة الانقضاض فيخرج ذلك كله في صورة قريبة للأذهان مدغدغة للمشاعر الدفينة مصورة الحياة البسيطة لأنها عظيمة في نظره، إذ إنها أصدق دليل على حال المجتمع.[٣٩] ويلجأ الشعراء الحليون إلى العديد من الأساليب اللغوية التي تعبر عن الرفض، ولا سيما الاستفهام، وهذا ما نجده في قول الشاعر سعد الشريفي:[٤٠]

أيتها الروح التي تتأمل العالم
وترسل الضياء لآلهتها
لماذا تناديني؟
هل تغير مجرى نهرك
هل غادرتك الزوارق والمجاديف

إن هذا الاستفهام نابع من حرقة وحسرة، فهو يدل على تخلي الناس عن بلادهم حتى باتت تنادي أبناءها للدفاع عنها، وما الاستفهام إلا أداة لتوصيل حالة الرفض والتمرد لاكتنازه بطاقة التغيير والتحول.[٤١] ويعد النفي من أوضح الأساليب الدالة على الرفض، وقد يكون مقترناً بالنهي والاستفهام كما نجد في قول الشاعر الشريفي[٤٢]:

من قال أن الشمس خيط من ظلام؟

أنا العراق

لا تغمضوا عيني

فإني أعرف الأسماء

لم أولد على رصيف ضائع

حتى وإن أغمضتمو عيني

فإن الأبجدية عانقتني.. ويعرفني قلمي

...

يا أهل بابل.. لا تنسوا مسلتكم

لا تندبوا بالله موتاكم

أصغوا للريح

وحدقوا في الغيم

تحمل هذه الأساليب اللغوية التي يستعملها الشاعر في لغته الشعرية استنكاراً وتنديداً ورفضاً للواقع الراهن، فالعراق له تاريخه الذي لا يمكن أن يمحوه أحد، وإذا كانت (لا) هي العلامة الأشهر التي تدل على الرفض وتعد دليلاً عليه، فإن لا الناهية التي استعملها الشاعر قد استطاعت أن تقدم مستوى أعلى من الرفض(٤٣).

نتائج البحث:

توصل البحث إلى أن ظاهرة الرفض تعد وثيقة الصلة بالأدب على وجه العموم وبالشعر على وجه الخصوص. وكانت ظاهرة الرفض متلازمة مع الخطاب المقاوم الذي يسعى إلى رفض الواقع القائم على الظلم والاحتلال واستبداله بواقع آخر يضمن الحرية والعدالة. ويعد شعراء الحلة من الشعراء الذين تركزت أشعارهم على ظاهرة الرفض من خلال خطابهم الشعري المقاوم للظلم والاحتلال. وكانت ظاهرة استنهاض الهمم والحث على المقاومة والنهوض بارزة بشكل كبير في الخطاب الشعري الحلي المقاوم، وقد اكتنف هذا الخطاب أحياناً اللوم والتقريع والتوبيخ، وجاء محملاً بالآمال أحياناً أخرى. وكانت اللغة الشعرية التي استعملها الشعراء موفية بغرض التعبير عن ظاهرة الرفض من خلال استعمالهم جملة من الأساليب اللغوية واللغة الموحية بالرفض.

هوامش البحث

(١) – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت، ٢٦٦/٥.
(٢) – المصدر نفسه، ٢٦٧/٥.
(٣) – المصدر نفسه، ٢٦٧/٥.
(٤) – كروكشانك، جون، ألبير كامي وأدب التمرد، تر: جلال العشري، مطبعة الوطن العربي، دت، ص١٢٨.
(٥) – باشلار، غاستون، فلسفة الرفض، تر: خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥، ص٥.
(٦) – المرجع نفسه، ص١٥٣.
(٧) – صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١، ص٦١٨..
(٨) – إسماعيل، عز الدين، الشعر في إطار العصر الثوري، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥، ص٨٦.
(٩) – هلال، محمد غنيمي، قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت، ص١٤٢.
(١٠) – المرجع نفسه، ص١٤٣.
(١١) – قضايا معاصرة في الأدب والنقد، ص١٤٣.
(١٢) – قرقطي، فيصل، الخطاب الشعري بين المقاومة والسلام، مجلة بلسم، ٢٠٠٣، ص٢٤٥.
(١٣) – لسان العرب، ٤٩٧/١٢.
(١٤) – المصدر نفسه، ٤٩٩/١٢.
(١٥) – المصدر نفسه، ٥١٢/١٢.
(١٦) – مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤، ص٧٦٨.
(١٧) – العزاوي، حسين، موقف القانون الدولي من الإرهاب والمقاومة المسلحة، المقاومة العراقية نموذجاً، دار ومكتبة حامد، عمان، ٢٠١٣، ص٩١.
(١٨) – فرغلي، هارون، خلط الأوراق مقاومة الإرهاب أم إرهاب المقاومة، دار الوافي للنشر، ٢٠٠٨، ص٤٩.
(١٩) – هداج، رضا، المقاومة والإرهاب في القانون الدولي، جامعة الجزائر، ٢٠٠١، ص٦.
(٢٠) – موقف القانون الدولي من الإرهاب والمقاومة المسلحة، ص٩٥.
(٢١) – مرزوق، عبد الصبور، أدب الثورة، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٠، ص١١.
(٢٢) – شعبان، يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤، ص٣٦.
(٢٣) –نوري، شاكر، المقاومة في الأدب السوفياتي ومختارات ١٩٣٩-١٩٥٤، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩، ص١٩.
(٢٤) – مروة، حسين، الموقف الثوري في الأدب، منشورات الفكر الغربي، د.ت، ص٣٨.
(٢٥) – العف، عبد الخالق، وخلفي، معاذ، البواعث الموضوعية في شعر الأسرى الفلسطينيين، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مج١٦، ع١، ٢٠٠٨، ص٣.
(٢٦) جاسم، عزيز السيد، سمات نقدية في الأدب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٦٨.

(٢٧) - اليسوعي، كامل روبرت، أعلام الأدب العربي المعاصر، مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر، بيروت، ١٩٦٦، ص١٤٢.
(٢٨) - علي، مصطفى خالد، الشعر الفلسطيني الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ٤٢/٢.
(٢٩) - بوقاسية، فاطمة، جميلة بوحيرد الرمز الثوري في الشعر العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، د.ت، ص٥.
(٣٠) - جمعة، حسين، ملامح في الأدب المقاوم، فلسطين نموذجاً، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩، ص٧.
(٣١) - لسان العرب، ٣٠٧/١٤.
(٣٢) - الشريفي، سعد، أغني للرحيل، دار الصواف للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٢٣، ص١٢.
(٣٣) - أغني للرحيل، ص١٥.
(٣٤) - المومياء العراقية، ص٢٥.
(٣٥) - المومياء العراقية، ص٣٣.
(٣٦) - العموري، مازن، جثة في بيت داكن، الرافدين للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢، ص١٢.
(٣٧) - حسين، فاتنة محمد، تجليات الرفض لفدوى طوقان، ج٧، ع٢٧، ٢٠١١، ص١٧٩.
(٣٨) - جثة في بيت داكن، ص٣٤.
(٣٩) - السادات، جيهان، أثر النقد الإنكليزي في النقاد الرومانسيين في مصر بين الحربين في الشعر، دار المعارف، مصر، د.ت، ص١٦٩.
(٤٠) - أغني للرحيل، ص١٠.
(٤١) - تجليات الرفض عند فدوى طوقان، ص١٨١.
(٤٢) - أغني للرحيل، ص٣١.
(٤٣) - الضبع، مصطفى، آليات الرفض في القصيدة العربية الحديثة، دار العلوم، ٢٠٠٢، ص٥٥.

قائمة المصادر والمراجع

١. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دت.
٢. إسماعيل، عز الدين، الشعر في إطار العصر الثوري، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥.
٣. باشلار، غاستون، فلسفة الرفض، تر: خليل أحمد خليل، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥.
٤. بوقاسية، فاطمة، جميلة بوحيرد الرمز الثوري في الشعر العربي الحديث، جامعة منتوري، قسنطينة، دت.
٥. جاسم، عزيز السيد، سمات نقدية في الأدب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.

٦. جمعة، حسين، ملامح في الأدب المقاوم، فلسطين نموذجاً، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩.
٧. حسين، فاتنة محمد، تجليات الرفض لفدوى طوقان، ج٧، ع٢٧، ٢٠١١.
٨. السادات، جيهان، أثر النقد الإنكليزي في النقاد الرومانسيين في مصر بين الحربين في الشعر، دار المعارف، مصر، دت.
٩. الشريفي، سعد، أغني للرحيل، دار الصواف للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠٢٣.
١٠. شعبان، يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٤.
١١. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧١.
١٢. الضبع، مصطفى، آليات الرفض في القصيدة العربية الحديثة، دار العلوم، ٢٠٠٢.
١٣. العزاوي، حسين، موقف القانون الدولي من الإرهاب والمقاومة المسلحة، المقاومة العراقية نموذجاً، دار ومكتبة حامد، عمان، ٢٠١٣.
١٤. العف، عبد الخالق، وخلفي، معاذ، البواعث الموضوعية في شعر الأسرى الفلسطينيين، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، مج١٦، ع١، ٢٠٠٨.
١٥. علي، مصطفى خالد، الشعر الفلسطيني الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦.
١٦. العموري، مازن، جثة في بيت داكن، الرافدين للنشر والتوزيع، ٢٠٢٢.
١٧. فرغلي، هارون، خلط الأوراق مقاومة الإرهاب أم إرهاب المقاومة، دار الوافي للنشر، ٢٠٠٨.
١٨. قرقطي، فيصل، الخطاب الشعري بين المقاومة والسلام، مجلة بلسم، ٢٠٠٣.
١٩. كروكشانك، جون، ألبير كامي وأدب التمرد، تر: جلال العشري، مطبعة الوطن العربي، دت.
٢٠. مرزوق، عبد الصبور، أدب الثورة، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٠.
٢١. مروة، حسين، الموقف الثوري في الأدب، منشورات الفكر الغربي، دت.
٢٢. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ٢٠٠٤.
٢٣. نوري، شاكر، المقاومة في الأدب السوفياتي ومختارات ١٩٣٩-١٩٥٤، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩.
٢٤. هداج، رضا، المقاومة والإرهاب في القانون الدولي، جامعة الجزائر، ٢٠٠١.
٢٥. هلال، محمد غنيمي، قضايا معاصرة في الأدب والنقد، دار نهضة مصر، القاهرة، دت.
٢٦. اليسوعي، كامل روبرت، أعلام الأدب العربي المعاصر، مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر، بيروت، ١٩٦٦.